

المشاهدات والحوارات في 'حوض الساورة' من خلال أدب الرحلة
-القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا-

Looks and dialogues on the Saoura basin through travel literature

During the 11th and 12th centuries AH (17/18 AD) as a model

أ.د عبد الرحمان بلّاغ^{1*}، د. محمد مقصودة²

¹ جامعة طاهري محمد- بشار (الجزائر)، bellagh.abderahmane@univ-bechar.dz

² جامعة طاهري محمد- بشار (الجزائر)، mohammed.maksouda@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2022/12/25

تاريخ الاستلام: 2022/07/07

ملخص:

يشكل أدب الرحلة، إحدى الأنماط الأدبية التي حفظت لنا جزء من تاريخ حوض الساورة في الفترة الحديثة (11هـ-17م/12هـ-18م)، إذ تمثل تلك المشاهدات التي خطها الرحالة والحوارات، نماذج من التراث تمهد للكتابة التاريخية عن حوض الساورة، ورغم أهمية أدب الرحلة؛ فالرحلة سلوك لازم للانسان منذ أن وجد على ظهر البسيطة، وبالتالي فهو يشكل موروثا شاهدا لا غنى عنه، إلا أن الذين تصدوا لهذا التراث دراسة وتحقيقا قليلون.

لذلك تستهدف هذه الدراسة تبين الواقع الاجتماعي والاقتصادي والمعماري والديني لمجتمعات القصور المتوطنة على ضفاف وادي الساورة وجير؛ فضلا عن إبراز المظاهر التضاريسية والأحوال المناخية والتجمعات المائية في المنطقة خلال الفترة المدروسة
كلمات مفتاحية: واد الساورة؛ واد جير؛ رحلة، مشاهدات؛ حوارات؛ قصور؛ زوايا؛ حمادة

Abstract:

Travel literature is one of the literary styles that have preserved to us part of the history of the Saoura Basin in modern times (11 AH-17AD/12 AH-18AD), thus these looks written by travelers and dialogues, represent examples of heritage that pave the way for historical writing on the Saoura basin, and despite the importance of travel literature being the latter a behavior accompanying man since he was found on the surface of the earth, and therefore constitutes an indispensable witness heritage, but those who take care of this heritage, through study and investigation, are counted.

* المؤلف المرسل

Therefore, this study aims to clarify the social, economic, architectural and religious reality of endemic palace communities on the banks of Wadi Al-Saoura and Jire. In addition to highlighting the characteristics of the terrain, the climatic conditions and the water collections in the region during the period studied.

Key words : Wadi Al-Saoura, Wadi Djir, travel, Looks, dialogues, palaces, Angles, Hamada.

1. مقدمة:

إن البحث في متون الرحلات، لا سيما تلك التي حملت توصيفا جغرافيا لحوض الساورة، وسجلت لنا مشاهدات جغرافية واجتماعية، وتضمنت حوارات ومراسلات خلال القرنين 11 و 12 هـ (18/17م)، يحيلنا إلى تبيان جانب مهم من جوانب الحياة الاجتماعية، والاقتصادية والدينية للمنطقة، كما أن استقراء تسجيلات الرحالة، يبرز الأهمية التي يتمتع بها "حوض الساورة"، في إطار علاقة جنوب المغرب الأقصى بالشرق خاصة، إذ كان يمثل ممرا مهما للقوافل المتجهة من سجلماسة "تافيلالت" إلى الشرق.

"حوض الساورة" يمثل المجال الجغرافي والهيدروغرافي، الذي يضم كل من واد جير وزوزفانة، ووادي الساورة، أي من أحواز العوينة شمالا إلى مشارف توات جنوبا، وأطلق مصطلح "حوض الساورة" باعتباره حوضا هيدوغرافيا، وباعتبار وادي الساورة هو الأكبر في امتداده الطولي مقارنة بـ "جير" وقرينه زوزفانة، يمثل كذلك مجالا عمرانيا مأهولا، تتوزع على ضفافه التجمعات السكانية التي تتفاوت من حيث تعدادها، وتتشارك في طبيعتها ومكونات عمارتها، تتوقف بقراه القوافل للراحة وللتزود باحتياجاتها من ماء وأكل؛ فضلا عن زيارة صلحائه.

تكمن أهمية المتون الرحلية، في كونها ترصد مشاهدات الرحالة، وحواراتهم ويومياتهم، لا سيما بحوض الساورة، إلا أن مادتها- على العموم- قليلة، مقارنة بما ورد في تلك المصنفات من معطيات عن مناطق أخرى، ورغم ذلك، تظل المعين الأهم للدارسين

والباحثين، لكتابة تاريخ "حوض الساوره"، في ظل ندرة مصادر أخرى مزامنة للفترة المدروسة.

من تلك الرحلات التي شهدتها القرن 11 و12 الهجريين (17-18م) الرحلة المسماة (ماء الموائد) أو "رحلة العياشي" وهي لصاحبها أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي السجلماسي (ت1090هـ-1679م)، الذي عرف بالرواية كما ذكر حفيده أبوعبد الله محمد بن حمزة بن أبي سالم في كتابه "الزهر الباسم في جملة من كلام أبي سالم" (كان كلفا بالرواية مستريحا إليها من أثقال الدراية)(العياشي، 2013: 16)، زار المنطقة في ثلاث رحلات حجية، الأولى عام 1059هـ- 1649م، ثم في سنة 1064هـ-1653م، ثم رحلته الحجية الثالثة عام سنة 1072هـ- 1661م، وهي التي أُلّف فيها الرحلة المذكورة.

وله مصنف آخر عبارة عن رسالة، سماها (تعداد المنازل) أو الرحلة الحجية الصغرى، وجهها أبو سالم لمحبه أحمد بن سعيد المجيلدي، مبينا له مبتغاه منها (أن نعرفكم ببعض ما تحتاجون إليه من مهمات الطريق، واختلاف أحوالها، وما تستعين به لكل موضع، وما تتلقى من شذائدها وتستشفى به من أدوائها، من أمور لا تنوب فيها المكاتبة عن المشافهة) (العياشي، 2013 : 42-43)، وهي ذات متن مختصر لمواضع حوض الساوره ، وما به من الشذائد.

"الرحلة الناصرية الكبرى" وهي لمحمد بن عبد السلام الدرعي بن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي التامكروتي (ت1293هـ/ 1823م)، رحل إلى المشرق مرتين لأداء فريضة الحج، الأولى كانت 1196هـ/1782م، كتب على إثرها مصنفًا عرف بـ "الرحلة الناصرية الكبرى"، أما الثانية فكانت سنة 1211هـ/1796م، وكتب على إثرها مصنفًا عرف بـ "الرحلة الصغرى"، لكن الدرعي اتخذ طريق الهضاب عن طريق بوسمغون، وبذلك المعلومات التي يقدمها لنا عن حوض الساوره شحيحة، إلا ما جاء عن القنادسة وواكدة.

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
الرحلة الناصرية لأبي العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي من أسرة اشتهرت
بالعلم والتصوف، تقلد مشيخة الزاوية الناصرية بعد أبيه، (ت1129هـ) (الدرعي، 2011:
34)¹ كانت الرحلة الحجية خلال عامي (1121هـ/1709-1122هـ/ 1710م)، وقد اتخذ
ركب الدرعي الطريق الشمالي على بوسمغون، لذلك نجد النص يقدم كغيره من النصوص
أسماء البقاع والقرى، لا سيما الواقعة في القسم الشمالي من الحوض، بنقولات ذات
قيمة عمرانية واجتماعية للمنازل التي مر عليها الركب.

أبو العباس أحمد بن عبد الله الهلالي السجلماسي (ت 1175هـ/1761م)²، له
رحلتين لبيت الله الحرام إحداها عام 1150هـ/1737م، وفيها سجل ما شاهده في
رحلته، وما لقي من العلماء، وذكر فيها مروياته عنهم، وإجازات بعضهم له، سجل الهلالي
فيها خروجه من سجلماسة، ثم وصوله لمنطقة مسور و القنادسة، ومروره بقصر بشار
وواكدة، ليتخذ الطريق الشمالي متجها إلى بوسمغون.

رحلة عبد الكريم بن محمد البكري التمنطيقي الملقب بـ "عالم توات" (ت
1632/1042م) والموسومة بـ "الرحلة لطلب العلم"، وهي في الأصل فهرسة³، جمع فيها
شيوخه، ويذكر أنه نزل بواد الساوره بمعية السيد الحسن بن أبي يحيى الشريف تلميذ
العالم سعيد قدورة، وقد مكث بها حوالي ثلاث سنوات آخرها عام 1020هـ/1611م إلى
جوار شيخه سعيد بن ابراهيم المشهور بقدورة التونسي الأصل الجزائري
الدار(ت1066هـ/1656م)، كما كانت له زيارة لبيت الله الحرام في سنة وفاته.

وإذا تتبعنا مضان الرحلات الأخرى، التي تناولت حوض الساوره، نجد رحلة أبو
عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج والملقب بـ "ابن مليح"، والمسماة "أنس
الساوي والساوي إلى بلاد المغرب"، وهي رحلة حجية امتدت من (1040هـ/1630-
1633/1042م)، سلك فيها طريق الصحراء مروراً ببلاد درعة، ثم تبلبالت إلى فزان، وفي
طريق عودته سلك طريق الساوره ثم تبلبالت، ثم دخل المغرب على درعة.

وأشار محقق الكتاب، أن صاحب الرحلة لا يعرف عنه شيئا مطلقا، ولم يرد اسمه ولا الحديث عن رحلته هذه في المصادر، وهذا يطرح تساؤلات عن هذه الشخصية من جهة، ومخطوط رحلته الذي ظل بعيدا عن التداول حتى سنة 1860م. لذلك لم نعرف سنة وفاته مثلا.

كتابات أبو العباس أحمد بن أبي محلي العباسي السجلماسي (ت 1021هـ)، رغم كثرتها وغزارة معارفها، إلا أن نصيب موضوعنا منها قليل، وهذا في تقديرنا يرجع لطبيعة كتاباته، التي كانت تخدم اتجاهها معينا يصب في إبراز زعامته، وطلب القبطانية، والرد على مخالفيه، والإجابة على سائله. استقر ابن أبي محلي حوالي عشرين سنة بحوض الساور (بني قومي وبني عباس)، وحج أكثر من حجة.

وإذا عدنا إلى الدراسات والمؤلفات الأكاديمية عن حوض الساور، نجدها قليلة، وممن أفاد في هذا الإطار الباحث عبد الله حمادي الإدريسي، الذي عمل على جمع مادة تاريخية مهمة عن الحوض، وضمنها في مجموعة مؤلفات، كما نقرأ العديد من الدراسات الأكاديمية في شكل مقالات أو مذكرات تخرج، أو إصدارات تناولت ركب الحج المغربي، حيث تم فيها الإشارة إلى حوض الساور أو "بلاد القبلة" باعتباره مسلكا مهما على طريق الحج. دون أن نغفل عن الكتابات الفرنسية التي تناولت تاريخ المنطقة، خلال مرحلة متأخرة عن الفترة المدروسة بحوالي قرن من الزمن؛ فهي تتضمن معارف تعطي تصورا عن الوضعية العمرانية والاجتماعية والدينية التي كانت عليها المنطقة، ولا يمكن للباحث أن يطمئن إليها كلية، لأنها متأخرة تاريخيا عن الفترة المدروسة، واعتمادها في الغالب على الروايات الشفهية؛ فضلا عن الأهداف الاستعمارية التي دونت لأجلها.

وعليه الإشكالية التي سنعالجها في هذه الدراسة، تتعلق بالبحث عن معرفة العمران البشري في حوض الساور، وما يرتبط به من حركية بشرية ووضعية اجتماعية ودينية، في الفترة المدروسة انطلاقا من مصنفات الرحالة، وعليه نطرح التساؤلات التالية:

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
على الرغم من وجود الحوض في منطقة صحراوية، إلا أنه عرف ارتيادا متواليا
من طرف الأركاب؛ فيم تتجلى مشاهدات الرحالة المكانية؟ وما أهميتها بالنسبة لركب
الحج؟ كما أن تلك الأمكنة شكلت تجمعات بشرية مهمة على طول المسلك؛ فماهي تلك
الأمكنة؟ وكيف ساهمت في رواج المسلك بالنسبة للأركاب؟ وأخير فيم يتجلى المضمون
الثقافي والديني لتلك الرحلات، خاصة المتعلقة بحوض الساوره؟

1- : المشاهدات في حوض الساوره

1-1: المشاهدات المكانية

1-1-1: المائية

لأن الماء عنصر الحياة الأول والأهم، فلا عجب أن يكون له الدور الأكبر في بروز
التجمعات السكانية واستقطاب الأركاب التي تعبر الصحراء، ذلك ما يتأكد من تسجيلات
الرحالة الذين عبروا حوض الساوره⁴، خلال فترة القرنين 11 و 12 هـ / 17 و 18م، إذ مثلت
قراه المتوطنة على ضفاف وادي زوزفانة وجير ووادي الساوره، محطات رئيسية للقوافل
المتجهة من تافيلالت للمشرق، أو تلك القادمة من تلمسان إلى توات، ثم مدن ما وراء
الصحراء.

تذكر النصوص الرحلية، وجود عيون وبرك مائية في مجاري الأودية والشعاب؛
فضلا عن إمكانية استخراج الماء بسهولة من حواف الأودية، بغض النظر عن عذوبته؛
ففي القسم العلوي من الحوض والذي يشمل منطقة واد جير وشعابه، إضافة إلى
المنطقة الممتدة من القنادسة إلى واكدة، والقسم الأوسط، يمتد من إقلي إلى قرى كرزاز،
ومنها إلى مشارف توات يمثل حوض الساوره السفلي.

تبرز في القسم العلوي من الحوض، العديد من مواضع المياه في المسلك القادم
إلى القنادسة من سجلماسة، على اعتبار أن المسالك الصحراوية كانت تابعة لنقاط المياه
ولا تحيد عنها، حيث ذكر أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي (1113هـ -

1175هـ/1701-1761م) بركة العمود، وقدمها لنا في صورتين: أشار في الأولى، إلى أنها بركة عظيمة وماؤها عذب خضخاض، وأن الشعاب المجاورة لها كانت حديثة عهد بالجريان، مما يدل أن الرحلة كانت في فصل الشتاء⁵، وفي رحلة عام 1150هـ/1737م، ينقل صورة ثانية ملخصها وجود الطمي المترسب في قاعها، وكان الرمل قد دفن معظمها، وهذا حال البرك التي تتزود من مياه الشعاب عند سقوط الأمطار. وإلى جانب هذه البركة، هناك موضع يسمى مسُور، يقع غرب القنادسة به مياه غزيرة، لكن تشوبها مرارة يسيرة.

و إضافة إلى المواضع والبرك المائية المتقدم ذكرها ، هناك أودية، ترافق الطريق الرابط بين سجلماسة والقنادسة من جهة، ومن القنادسة إلى مشارف توات من جهة ثانية، وأول تلك الأودية وادي الصفصاف، الذي يبدو قليل الماء و الفائدة ، بحسب ما ذهب إليه الهلالي والدرعي في رحلتهما ، إذ لم يقدم أية معلومات مستفيضة حوله ، ومن جهته اختصر الهلالي حديثة عنه في أنه وجد به ماء لا بأس به، في حين صادف ركب الدرعي جفاف الوادي ، الأمر الذي دفعهم إلى أن يحفرو قليلا في منخفض الوادي لاستخراج الماء .

يرتب أبو سالم العياشي (ت 1090هـ/1679م) أودية حوض الساورة، مبتدئا بواد الصفصاف، ثم واد جير إلى واد الساورة، حيث ذكر أن ماء واد جير قبيح، وطوله يقدر بمسيرة ثلاثة أيام إلى غاية القنادسة؛ فضلا عن كونه (ملتحف الأشجار، قليل الأحجار، كثير المرعى، غمض المسعى، يجتمع إليه السيول من المسافات البعيدة ... ويمتد إلى ناحية الصحراء كذلك، والعمارة متصلة في جوانبه) (العياشي، 2013: 76/1)، وهو نفس التوصيف الذي أورده الهلالي في رحلته عام 1150هـ (فمررنا بوادي كير بكرة، ولم ننتفع بمائه الأجاج المستنكر أقبح به، كأنما هو ملح أذيب، بل هو أحبث لمرارة فيه، تعذب الحوائل أي تعذيب وحق له؛ فإن الملح المرمتراكم حواليه، والسبخة العظيمة ثاوية لديه، وصرنا ذلك اليوم، ومسّ الظمأ بعض القوم؛ فنزلنا) (الهلالي، 2012: 34)، وعبر أحمد بن

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
محمد بن ناصر الدرعي (ت 1128هـ / 1716م) في رحلته التي بدءها عام 1121هـ/
1702م⁶، عن مشاهداته للواد بكونه، واد واسع كثير الأشجار كثير المراعي، غليظ المسعى،
تجتمع به السيول من مسافات بعيدة، دون الحديث عن طبيعة مياهه، رغم أنه وجده
قريب العهد بالسيلان.

تتوقف أغلب الرحلات المغربية في توصيفها لحوض الساوره عند واد جير، إلا أن
أبا سالم العياشي، أمدنا بمعلومات تتجاوز وادي جير، وذلك بتوصيف وادي الساوره
"الأساور"، ويبدو أن الدرعي قد اطلع على ما كتبه العياشي عن وادي الساوره. لذلك نجد
عباراته مماثلة لعبارات العياشي، عند حديثه عن طبيعة مياه الوادي وكثافة الأشجار
والقرى؛ بينما البكري في رحلته اكتفى بجملة عن واد الساوره في سياق حديثه عن
ملازمته لشيخه السعيد قدورة، وابن أبي محلي رغم طول مدة إقامته بحوض الساوره
(بني قومي، بني عباس)، إلا أن ما كتبه عن مشاهداته المائية والمجتمعية نادرة جدا،
مقارنة مع ما كتبه عن صراعاته مع الشيخ السماحي، أو التصوف؛ فضلا عن ردوده عن
الرسائل التي كانت تصله. وفي القرن 12هـ/18م نجد ابن مليح، هو الآخر في طريق عودته
من توات إلى درعة سلك طريق واد الساوره، إلا أن معلوماته عن الوادي، لا تتعدى رغبته
في توفير الأمن بالطريق من كرزاز إلى تبلبالت.

تضمن نص "ماء الموائد" المنسوب لأبي سالم العياشي مادة مهمة عن واد
الساوره، لا سيما في المجال العمراني؛ فهو أطول أودية بلاد المغرب مسافة، وأقلها فائدة
وأكثرها مخافة، يمتد على مسافة عشرة أيام (وادي كير نحو ثلاثة أيام)، من قرية إيجلي
وهي أولى قرى الوادي إلى قريب من توات، حيث يسمى هناك بوادي مسعود إلى أن يختفي
في الرمال نواحي بودة، وقلة فائدته تعود إلى مصير مياهه وقت جريانه؛ فهي تغور في
الرمال دون فائدة، سوى ما قد يفيد غابات النخيل الممتدة بمحاذاة القرى. أما الجانب
الأمني في المسلك المار عبر الوادي، فيعرف نوعا من اللصوصية لذلك قال: وأكثرها مخافة،
إلا أنه في فترة مرور ركب العياشي، وجده في غاية العافية، وقبله في سنة 1010هـ/1601م

مر الحاج معروف بن يوسف التلاني التواتي، مسافرا لبلاد تافيلالت قال: (أن العافية في زمانه من هنا لبلاد توات إلى مراكش لا قاطع فيها ولا لص) (حمادي، 2013 : 122/1)

1-1-2: العمرانية

أكبر التجمعات البشرية بحوض الساورة لهذا العهد، نجدها تتمركز حول واد جير ثم وادي الساورة، في شكل قرى تحتضن إلى جنباتها غابات النخيل والبساتين، وإذا تتبعنا رحالة القرن 11 و 12 الهجريين الذين جابوا الحوض المذكور، نجدهم يشيرون إلى إمكانية إشارة عابرة، وأخرى يسجلون عنها ملاحظاتهم وانطباعاتهم، كما نجد المسلك العابر لواد الساورة، قلما ارتادته الركاب المتوجهة من سجلماسة إلى المشرق، وإنما اتخذت الطريق الشمالي المار عبر فيقيق والغاسول، رغم كثرة اللصوصية به، وذلك لقصر مسافته مقارنة بالطريق الجنوبي. كما أن عامل الطقس يعتبر مهما في هذه الحالة؛ فإذا كان موسم الحج في فصل الصيف، نجد اختيار الركب للطريق الشمالي للطاقة الجو، بينما إذا كان في فصل الشتاء، غالبا يسلكون الطريق الجنوبي المار على تلبالت والأوسط المار عبر الساورة، مثل ركب ابن أبي محلي، وأبي سالم العياشي، وابن مليح السراج، الذين عبروا قرى الساورة، تبعا لما بين أيدينا من نصوص.

اعتبارا للفترة الزمنية نجد ابن أبي محلي أول من وثق لنا مشاهداته وأسماء قرى الساورة، وإن غفل عن بعضها، حيث اكتفى بذكر قرية بني جومي (بني قومي) وقصرها البيزان، ثم بني عباس وقبر سيدي أحمد بن موسى، ثم ينتقل مباشرة إلى قرى توات، كونه لم يكن يستهدف في كتاباته تبيان ووصف المراحل والمنازل عبر الوادي، ويؤكد ذلك أنه رام الاقتضاب دون الاسهاب في رحلته (حمادي، 2013 : 123/1)، كما أن ذكرها جاء في سياقات أخرى كما ورد في رسالته "الإصليت" وفي "الهودج" حيث ذكر بعض القرى بالاسم مع بعض أعلامها، مثل قرى بني عباس، وفي أسطر أخرى يسميها القرية العباسية، وهي في الأصل ثلاث قرى كما سيأتي عن العياشي؛ فعند ابن أبي محلي بنو عباس: (قرى مشهورة

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
بوادي الساوره، إنما نزلتها أنا وحدي عام 1000هـ/1592م فقط، ثم تزوجت فيها بابنة
سيدهم الصفي الوفي الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن شمس الدين العباسي، وولدنا
منها أولادا أصلحهم الله كإخوتهم من غيرها (حمادي، 2013: 97/1) وجاء في الهودج أيضا
حديثه عن زواجه واستقراره ببني جومي بعد بني عباس (دار هجرتي هذه القرية العباسية
بالوادي المبارك أمّنه الله وقدس موارده، ولي دار أخرى معها ببني قومي أنشأتها عام
1014هـ/1606م) (حمادي، : 94-95)

بعد حوالي نصف قرن عن وفاة ابن أبي محلي، خرج أبو سالم العياشي في رحلة
شتوية (عام 1072هـ/1661م)⁷ يبتغي زيارة الحرمين، وبكثير من التفصيل والفوائد
الجغرافية والاجتماعية والدينية، يقدم العياشي مدونته، من أهمها صعوبة المسلك من
"وادي السبط" إلى أولى القرى من حوض الساوره، لكونها أراضي واسعة وحرشة ووعرة،
ومناخها جاف، حتى الحطب قلما تجده، ولا تسمع فيها إلا صرير الرياح، ولا يقطعها إلا ذو
خُف أو طائر، ولا مبتغى للمرء فيها إلا النجاة (العياشي، 2006: 75/1)، ومن هنا لابد أن
نفرق بين مدونة رحلة العياشي ورسالته لتلميذه؛ ففي الأولى يتخذ طريقه من سجلماصة
إلى وادي السبط، ثم ضاية الحمارثم إيجلي، أول قرى واد الساوره، بينما ما كتبه لتلميذه
يستهل من سجلماصة باتجاه القنادسة، لذلك يقول: (ومن سجلماصة إلى القنادسة خمس
مراحل وهي ذات نخيل وأشجار. ، وبالقرب منها قرى بشار؛ فلا يوجد فيها ما يحتاج إليه؛
فتأهب لهذا المسير من سجلماصة (العياشي، 2013: 48)، وأكد ذلك الدرعي في رحلته
(1121هـ/ 1702م)، من أن العمارة منقطعة من سجلماصة إلى قرى واد الساوره، وما
يقابلك في الطريق إلا الفيافي والفجاج، حتى تصل إلى قرية القنادسة

حسب النصوص الرحلية المتوفرة لدينا في الفترة المدروسة، يمكننا أن نقدم
مصفوفة القرى الواقعة بحوض الساوره، تبعا لأمكنة تموضعها، إذ نجدها بمحاذاة
نقاط المياه، إذ تشير المعطيات الرحلية، أن العمارة تنقطع من سجلماصة إلى واد جير عند

قرية العوينة (القنادسة) على مسافة خمس مراحل، ومنها إلى بني قومي ثم قرى الساورة بدءاً من إيجلي إلى انقطاع العمارة من الحمادة إلى واد الساورة، مثل ما يقول العياشي: (وابتداؤه من ناحية بلدة آيت عياش وعليه قرى ومزارع، ويمتد إلى ناحية الصحراء، والعمارة متصلة في جوانبه إلى أن يصل إلى أطراف الحماد الكبير الذي بينه وبين سجلماسة؛ فمن هناك تنقطع العمارة إلى أن يصل إلى واد الساورة) (الدرعي، 2011: 124/1)

مما يثير تساؤلاتنا أن ابن أبي محلي في تنقلاته المستمرة خلال عامي 1000هـ و1019هـ بين سجلماسة وقرى الساورة، لم تشمل مدونته قرى بشار، لا سيما في رحلته الحجية عام 1002هـ، التي سلك فيها طريق فيقيق ثم القرارة مع بوسمغون والشلالة والغاسول وعين ماضي، أو في حملته العسكرية على مراكش، مروراً بسجلماسة عام 1020هـ، ونجد ذكر القرى أو بعضها عند كل من العياشي، والهشتوكي (ت 1127هـ) والدرعي (ت 1128هـ / 1716م) والهلالي (ت 1175هـ) ومحمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ / 1823م).

تضمن متن رسالة العياشي لتلميذه المجليدي عام (1068هـ) وصفا لطريق الحجاز، تسمية العوينة، والملاحظ هنا أنها لم ترد في مدونة رحلته الحجية "ماء الموائد"، مما يرجح عندنا أنه لم يطأها وأول ما يذكر إيجلي من قرى الساورة، وإلى الشرق من العوينة، تُذكر قرى بشار ثم واكدة، كما جاء في الرحلة الناصرية (ثم ارتحلنا من القنادسة تاركين قرى بشار ذات اليمين فبتنا بقرىها بمدشر واكد قبل الظهر، وماؤها في الصفاء لجين وفي العذوبة حلو وبه سوق أعراب ذوي منيع) (الدرعي، 2011: 128)، وقد عدد العياشي في رحلته قرى واد الساورة، وأشار أنها تتصل على مسافة عشرة أيام إلى قريب من توات، لكن الملاحظة العامة التي نقف عندها تتمثل في شح المادة المقدمة حول هذه القرى، واكتفى بذكر بعضها اسمها فقط، وبعضها لم يدخلها أصلاً.

المشاهدات والحوارات في حوض الساورة من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
"إيجلي" تأتي في مقدمة قرى الساورة، لم يحدثنا العياشي عن مجتمعها ولا
عمرانها، واكتفى بالقول: أن صاحبها لم يحسن للركب، رغم التوصية المحمولة له من أمير
سجلماسة، هذا الموقف ينم عن خصومة سياسة بين الطرفين، ترجع إلى ما ذكره
العياشي عن واد الساورة، من أن أمير سجلماسة يبالغ في التنقيب عن اللصوص
ومعاقبتهم، ويشير في هذا السياق إلى جملة في غاية الأهمية عن الأمير (كان غالبه ظلما لا
تنكر الباطل في طوره فإنه بعض ظهوراته) (العياشي، 2006: 76/1)، مما يرجح لدينا
فرضية بلوغ حيف وظلم الأمير إلى والي إيجلي وساكنة القرية، بدعوى تأمين الطريق، وهو
ما جعله لا ينتبه لتوصيته.

تبعاً لهذا الموقف من صاحب إيجلي لم يمكث الركب بها، وغادرها في نفس اليوم
باتجاه قرية مازر، التي تبعد عن إيجلي بمرحلة (ونزلنا في ذلك اليوم بقرية يقال لها
مازر) (العياشي، 2006: 76/1)، التي وردت اسماً فقط، وكأنه لم ينزل بها، رغم أن الركب
قد قطع مسافة طويلة وهو بحاجة إلى الراحة والتزود، لكن العياشي يبدو متسرعاً وهنا
نتساءل، هل لقي الركب نفس المعاملة من صاحب قرية مازر، وإلا كيف يتجاهل ذكر
صاحبها وسكانها وعمارتهم؟

يبدو العياشي، انطباعياً هنا، لأن هذا الصمت الذي سلطه على إيجلي ومازر،
سيزول بمجرد أن يصل قرى بني عباس، ذلك ما يظهر من خلال أسلوبه وعباراته، حيث
يقدمها عمرانياً بأنها ثلاث قرى غير متباعدة على شفير جبل صغير، تطل على بساتين
وغابات النخيل المجاورة لمجرى وادي الساورة. ثم يقدمها تاريخياً في كونها البلدة التي
استقر بها أحمد بن عبد الله بن أبي محلي السجلماسي، ومنها كان ابتداء أمره وقيامه،
وتجول بقراها، إلى الحد الذي يشير لنا بالقول: هذه داره في عبارته: (وداره الآن
معروفة) (العياشي، 2006: 77/1) ، وبها أيضاً كان له متسعاً للإجابة على أسئلة سيدي
إبراهيم السوسي (ت 1077هـ) الذي كان معه في الركب، ولم تكن له قبل ذلك معرفة به،

وهذا يدل على الاختلاط والتقارب الذي حصل بين أفراد الركب، ومن ذلك يظهر أيضا أن المدة التي قضاهما الركب ببني عباس كانت كافية للراحة واندماج الركب - وإن لم يذكرها العياشي - إلا أن العياشي لم يصف لنا سوق بني عباس، ونخيلها وساقيتها والقصر وسكانه.

خرج ركب العياشي من قرى بني عباس ظهرا، وباتوا ليلتهم بالقرب من قرية بشير، ثم اجتاز الركب منخفض وادي الساوره، وصعد إلى الحمادة على الجهة اليمنى من الوادي، إلى أن نزل بموضع فم المدفع ومر ببني يخلف، إلى أن وصل إلى زاوية سيدي أحمد بن موسى (ت حوالي 1013هـ / 1604) وهي بموقع متوسط بين توات وجبال القصور شمالا (Depont, Coppolani, 1897, 501)، من خلال القراءة المتأنية لما ورد نستنتج ما يلي:

- أن ركب العياشي خلال هذا المقطع من الرحلة، والذي يبدو أنه قطعه في يومين، لم ينزل بموضع مأهول أو قرية، رغم تواجدها على المسار (بشير، الغابة، بني يخلف) وإنما اختار النزول بمواضع غير مأهولة (فم المدفع)؛
- تحول مسار ركب العياشي من بشير يُمَنَة ليسلك الحمادة، مبتعدا بذلك عن المسلك المحاذي لمجرى الساوره، والذي يضم مجموعة من القصور، تسمى بـ "الغابة"⁸، لتعدد قرى ونخيلها، حتى اعتبرها أكثر قرى الوادي تمرا، ورغم أنها تمثل فرصة للركب للتزود والراحة، لكن ركب العياشي "تحاشى" المرور بالغابة، ونزل بمكان مكشوف يقال له: فم المدفع؟ يرجع ذلك في تقديرنا لعدة عوامل: منها خوفهم من السطو على القافلة من طرف الأعراب في وسط غابات النخيل الكثيفة، إضافة إلى صعوبة المسلك الرابط بين بشير والغابة بسبب تواجد الكثبان على طول الطريق، أو لربح الوقت، لأن الطريق عبر ضفة الواد اليسرى أطول، مقارنة بمسلك الحمادة وأكثر أمنا.

المشاهدات والحوارات في حوض الساورة من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
تلتقي بعض الكتابات الرحلية، التي تناولت الحوض عند زاوية سيدي أحمد بن
موسى بالحديث عنها، كما ورد عند العياشي، وابن مليح السراج؛ مما يبعث على
الاستغراب هنا أن ابن أبي محلي لم يتطرق للشيخ أحمد بن موسى وزاويته في رسالته
الإصليّة، رغم أنه أقام ببني عباس حوالي عشرين سنة ابتداء من عام 1000هـ، ولم
يكلف نفسه عناء التنقل لزيارته رغم قرب المسافة، هل يعود ذلك لتحاشي ابن أبي محلي
ملاقاة الشيخ أحمد بن موسى؟ أم أن الظروف لم تساعدته للتنقل لزاويته؟ لأنه بعد
عودته لبني عباس 1014هـ كان الشيخ أحمد بن موسى قد توفي.

بينما هناك نصوصاً أخرى منسوبة لتلامذة سيدي أحمد بن موسى، تفيد بقاء
ابن أبي محلي بالشيخ، وبأنه جرى بينها حوار تضمنه كتاب 'المناقب المعزية' الذي ألف في
فترة متأخرة (حوالي 1279هـ / 1878هـ) (الكرزازي، 1880 :)، وتخلل اللقاء خوارق لابن
أبي محلي، تصدى لها الشيخ سيدي أحمد بن موسى، حسب صاحب المناقب. كما أن
الرحالة عبد الكريم بن محمد البكري التمنيطي (ت 1042هـ) نزل ببني عباس من قرى
الساورة حوالي 1017هـ، عند العالم سعيد قدورة، إلا أنه لم يتحدث عن زاوية سيدي
أحمد بن موسى، علماً أنه قدم إليها من توات.

يبدو أن العياشي أوفر الرحالة ذكراً لزاوية سيدي أحمد بن موسى، إذ يؤكد في
هذا السياق على الحماية التي وفرها لهم صاحب الزاوية، وحسن الضيافة التي حظي بها
الركب، وهذا ليس استثناءً، فالزوايا الصحراوية عرفت بهذه الخصال النبيلة، حيث بات
الركب ليلتهم عند شيخ الزاوية، وهو لهذا العهد (1072هـ) الشيخ عبد الرحمان بن
بوفلجة (ت 1115هـ)، الذي تسلم رسالة أمير سجلماسة.

يستمر العياشي بذكر المواضع العمرانية على جنبات الوادي، كموضع الطويل،
لذي وصله الركب بعد أن سار يوماً كاملاً، وفي مقابله إلى جهة اليسار توجد قرى أولاد
رافع، التي لم يدخلها الركب، وبذلك تغيب عنا المعطيات العمرانية والاجتماعية عن هاته

القرى، ومن موضع الطويل توجد تمغارن على طريق الحمادة، وفي مقابلها لجهة اليسار توجد قرية القصبات على ضفاف وادي الساوره، وعلى بعد ثلاث ليال، يوجد موضع الدميرنة، وهو كما يتضح من تسميته موضعا وليس قرية.

2-1: المشاهدات المجتمعية

من خلال النصوص الرحلية التي اطلعنا عليها، سعينا إلى استنباط ما دونه الرحالة عن مجتمعات القرى التي نزلوا بها، إلا أنها في الغالب لم تعطينا توصيفا دقيقا لحالة المجتمع، بحكم أن النص تضمن علاقة صاحبه بأعيان القرى، وبالتالي فهو يقدم صورة نمطية تكاد تكون واحدة، تتمثل في مشاهد الاستقبال التي حظي بها الركب برعاية أعيان القرى، بينما لم يقدم لنا معلومات على حالة المجتمع الذي يبتغيه الركب، حال دون تقديرنا إلى أن خصوصية الرحلة وبُعد المقصد الشريف الذي يبتغيه الركب، حال دون مخالطة أصحاب النص الرحلي لعامة الناس، إلا ما كان في اقتناء بعض الاحتياجات، أو الحضور لصلاة.

الغالب على الأمكنة المأهولة التي نزل بها ركب الحجاج، يتمثل في اعتماد ساكنتها على الفلاحة خاصة غراسه النخيل، لذلك يعبرون عنها بأنها ذات نخيل وأشجار، مثل القنادسة، وبني عباس، والغابة التي أشار إليها العياشي، بأنها عامرة بأشجار النخيل تقصدها العرب للميرة.

كما تتجلى لنا مظاهر الكرم وحفاوة الاستقبال، التي حظيت بها ركببان الحجيج، لا سيما في القسم الشمالي من الحوض؛ فهذه القنادسة (الناصري، 2013: 184) خرجت عن بكرة أبيها لاستقبال الركب الذي فيه الناصري، مظهرين الفرح والسرور مشاة وركبانا كهولا وشيوخا وصبياناً، يتقدمهم المرابطون من بني الشيخ ابن أبي زيان، الذين استقبلوهم في ساحة القرية، في مظهر تعلوه الأهازيج وذوي البارود، ونزل الركب بساحة

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
ديارهم، وبالغوا في إكرامهم ثلاثة أيام. ومن عادة من يرغب في أداء فريضة الحج من
سكان القنادسة، أن يتأهب للمسير مع الركبان القادمة من سجلماسة، وبذلك انضمت
للركب أعداد من الحجاج.

في نفس تلك الأجواء من الفرحة، نجد طابع الكرم الذي يستقبل به الركبان، لا
سيما ركب الدرعي في طريق عودته، من أهل قصر بشار بالتمر من نوع أبي فقوس رطباً،
مما يدل أن وقت رجوعهم كان في فصل الخريف، وتناولوا العشاء بقصرها بطبق
كسكس، ونجد كذلك أسلوباً آخر من الكرم لم يقتصر على الإطعام، وإنما يتمثل في
تقديم الهدايا للقوافل المارة غير النازلة عندهم، مثلاً لما تسمع أهل العين بالركب، قدموا
إليهم بمعية الشيخ عمر بن عبد القادر، يحملون عربون محبتهم ممثلاً في سبعة أكباش،
وحملان شعيراً وحملان دقيقاً، أهدوا كل ذلك لله تعالى، كما أكرم بعض أهالي واکدة
الشيخ إبراهيم المنلايخافي بعنزة، وما يزيد عن الصاع من الزرع.

كما نقل النص الرحلي مشهداً من التعايش الحاصل بين سكان حوض الساوره،
من خلال تلك الصورة التي قدمها ناصر الدرعي، وهو في طريقه إلى القنادسة قادماً إليها
من قصر بشار، حيث استقبل من طرف جماعة من أهل القنادسة مع بعض الأعراب
الساكين معهم، إضافة إلى عناصر من أهل جير. هذا الاندماج المجتمعي بين سكان
البادية والحضر، يدل على مكانة الزاوية القندوسية وأدوارها الدينية والاجتماعية؛ فقد
استقبلوهم وهم يتسابقون بأفراسهم، كمظهر من مظاهر البهجة والسرور بوصولهم،
وأقام الركب بينهم ثلاثة أيام (وأقمنا بها ثلاثاً وبالغ المرابطون بنو زيان في ضيافة الركب
على عادتهم، وخصنا بالإكرام سيدهم على الإطلاق سمتاً وهدياً وديناً سيدي الحسين بن
محمد بن أبي زيان) (الناصري، 2013: 911).

إذا كانت تلك مظاهر الضيافة والإكرام التي تضمنتها نصوص الدرعي في شمال
حوض الساوره؛ فإن النصوص الأخرى التي بين أيدينا، تفتقر إلى المعطيات الاجتماعية،

فيما يتعلق بوسط وجنوب حوض الساوره، وهذا في تقديرنا يعود إلى أسلوب العياشي في الأدب الرحلي، إذ لا يهتم كثيرا بذكر مظاهر الفرح والكرم، التي قد يتلقاها من أهالي المناطق التي ينزل بها، أو إلى غياب تلك المظاهر لدى سكان تلك القرى التي نزلوا بها - وهذا مستبعد جدا- وقد يرجع ذلك إلى ضعف نفوذ الزاوية الكرزائية في هذه المناطق، مقارنة بنفوذ الزاوية القندوسية في شمال حوض الساوره (القنادسة، قصر بشار، واكدة -علما أنها مناطق متقاربة، عكس وسط وجنوب حوض الساوره-).

يحدثنا العياشي أن صاحب قرية إيجلي لم يحسن إليهم، رغم أن أمير سجلماسه قد كتب إليه في هذا الخصوص، وهنا تبرز تداخل العامل السياسي مع المعطى المجتمعي، إذ لا يمكن فرض الكرم والمحبة والحبور مثلا بتوصية فوقية، وربما يكون هذا مدعاة لصاحب إيجلي لأن يقوم بما قام به، كما أن نص العياشي يتضمن عبارة واحدة عن إيجلي، تتمثل في قوله: (فما أحسن صاحبها ولا أفضل) (العياشي، 2006 : 76)، وقد يكون ذلك بسبب نظرة سكان حوض الساوره، لكل مبعوث من سلطان مراكش، باعتباره غازيا للمنطقة منذ حملة أحمد المنصور السعدي (992هـ/1584م) على الساوره وتوات.

بنفس الوتيرة الأدبية يمر العياشي مرور الكرام على مازر وبني عباس وبشير، والغابة التي ينعتها أنها أكثر قرى وادي الساوره تمرا، وتقصدها القوافل للميرة، وهنا نتساءل لماذا ركب العياشي لم ينزل بها، وفضل طريق الحمادة؟ لقد قدمنا سابقا بعض التحليلات لهذا التصرف، والسؤال الثاني لماذا لم يخرج سكان القرى لملاقاة الركب، وتقديم الهدايا كما فعل سكان واكدة والعين مثلا؟ وفي ذات الوقت لم يتعرض الركب لغارات قطاع الطرق، على شاكلة ما يحصل للركب نواحي واد الناموس والغاسول وغيرها، كما يذكر الحضيكي (الحضيكي، 2011: 84) في رحلته الحجازية؟

بكرزاز تعود مشاهد الكرم والعطاء، من طرف صاحب زاوية سيدي حمد بن موسى، حيث (أحسن صاحبها في القرى لنا ولسائر أهل الركب وأعطى ما بعث إليه

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
الأمير(العياشي، 2006: 78)، واستمر نص العياشي يذكر لنا مواضع المسير في أسفل
حوض الساوره، دون إبراز للجوانب الاجتماعية. وبذلك ضاع منا تراث وفير عن المنطقة.
في ظل ندرة الرحلات التي جابت حوض الساوره السفلي في الفترة المذكورة.

2- الحوارات بحوض الساوره

لقد أفادتنا النصوص الرحلية، أن القنادسة وقرى بني عباس وزاوية سيدي
أحمد بن موسى، قد جمعت العديد من المعطيات، منها نزول العلماء بها، وكونها مراكز
مهمة على مسالك الأركاب، مما جعلها فضاء للحوار والتواصل الفقهي والسياسي، سواء
عن طريق المجالسة أو التراسل، ولأن ركب الحج، هو ركب لطلب العلم والتفقه في الدين؛
فقد كان له نصيب من ذلك.

باعتبار القنادسة أولى المحطات المهمة للركب القادم من سجلماسة ولاحتضانها
زاوية سيدي أحمد بن بوزيان؛ فقد أبهرت خزانها العلمية الهلالي ورفيقه العلامة علي بن
محمد بن عبد الله الحاحي، إذ يذكر في رحلته أنه مع نزولهما القنادسة، طلبا من شيخ
الزاوية بالسماح لهما بولوج مكتبتها، حيث وجدا فيها من الكتب ما هو مرغوب فيه،
وأشادا باعتناء القائمين عليها، ومن المصنفات التي تصفحها: الاقتضاب لابن السيد
البطلليوسي على أدب الكتاب لابن قتيبة (الهلالي، 2012: 106-107). كما كان العلماء
يضعون ما جمعوه من مصنفات بين يدي طلابهم، لا سيما ببني عباس؛ فهذا سعيد
قدورة العباسي دارا (ت 1656/1066م) كان يتلطف بطلبته؛ فقد قال لتلميذه عبد
الكريم بن محمد البكري التمنيطي: (لا أدخر عنك ما في الصدور ولا في السطور؛ فمتى
شئت من كتبي، نخرجه لك تطالع فيه)(البكري، ب. ت: 125)

تضمنت المدونات الرحلية الأخرى عديد الحوارات لا سيما الفقهية منها، والتي
يبدو أن بعضها نابع عن حالة من الجهل بأمور الدين، والتي يسجلها كل من الهشتوكي
(ت 1127هـ/1715م) والناصري(ت 1239هـ/1823م) في رحلتهما؛ بينما الهشتوكي، أشار إلى

ظاهرة عدم اكتراث أهالي قصر بشار بصلاة الجمعة؛ حيث صادف لحظة توجيهه بمعية مولاه عمر للجامع، فرأى غالبية سكان القصر قاعدين في أزقتهم غير مباليين بصلاة الجمعة؛ فوعظهم ودعاهم إلى حضور الصلاة. في حين الناصري رأى أن القنادسة بلد عامر (تصلى فيه الجمعة، إلا أنه فارغ من العلم) (الناصري، 2011: 184).

تتضمن "الرحلة الناصرية الكبرى" عديد المسائل الفقهية التي سئل عنها أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/1823م) في رحلته، مثل تلك المسألة التي تتعلق بالكراء، وهي مبسوبة في نص الرحلة مع جواب الناصري (الناصري، 2011: 184)، وهذا يدل على أن ركب الحج تطرح فيه مسائل وتقع فيه خلافات، وغالبا ما يرجع فيها إلى الفقهاء المرافقين للركب، كما ينم عن حجم الأموال التي يحملها الحجيج؛ فهذا رجل وزوجته تعاقدتا مع آخر، على حمل متاعهما من سجلماصة إلى الحرمين، بثلاثمائة مثقال ذهبا، إلا أنه تأخرا عن الركب، فاكترى رجلين من ذوي منيع ليوصلاه للركب؛ فلما أوصلوه للركب وهو بالقنادسة، اختلفوا فيمن يدفع لهما. وسئل أيضا عن قراءة القرآن على الدابة؛ فهل هو جائز أو مكروه؟ وبواكدة سئل عمن حلف بحرمة زوجته إن لم تسق الماء، أيكون كافرا، وماذا يلزم الحالف؟ (الناصري، 2011: 184-185).

كما حظيت قرى بني عباس بحوارات ومراسلات، من أعيان الأركاب التي نزلت بها، أو من خلال المراسلات، وتتعدد المراسلات بين شيوخ الحوض وغيرهم، خاصة بين ابن أبي محلي السجلماصي، وعلماء توات من جهة، وأعيان القبائل بنواحي وهران من جهة أخرى. إذ يقول معاصره الفقيه أبو العباس أحمد التواتي في رسالة سماها "مقامه التجلي والتخلي من صحبة الشيخ أبي محلي" (فانحشر الناس لزيارته أفواجا ... وبعد في البلاد صيته وكثر أتباعه. قال فلما سمعت بذلك ذهبت إليه وجلست عنده مدة إلى أن وجدته يشير إلى نفسه، بأنه المهدي المعلوم المبشر به في صحيح الأحاديث؛ فتركته وراء، ونبدته بالعراء) (الإفراني، 1998: 299)

المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
بينما ابن أبي محلي ببني عباس، وصلته رسالة من الشيخ عبد القادر الراشدي
الزناتي، مع الفارس الشيخ أحمد المعروف بـ"بورويس" نزيل بني عامر، يطلب فيها
تحرير قبائل والمشايخ بالشمال الوهراني، لجهاد الإسبان المتغلبين على الثغور؛ فنظم
ابن أبي محلي قصيدة ميمية يخاطب فيها الأتراك عام 1016هـ/1607 ذكرها في الإصليت،
ونظم قصيدة أخرى رائية وجهها لقبائل بني عامر بالتل الوهراني، يلومهم فيها على
تقصيرهم في الجهاد، ومما قاله (حمادي، 2013: 439/1): (لما زارنا ونحن في الصحراء،
بقرى بني عباس من وادي الساوره، حماه الله من كل بأس، وحكى لنا ما فيه المسلمون
من وهران ذات الخنازر، وأن القلوب قد بلغت الحناجر؛ فاستدعى مني كتابا لشيخ زناته
الأحرار، مع قبائل بني عامر الذين هم في جوار الكفار، وهو الشيخ المشهور في قبيلة بني
راشد ... الشيخ عبد القادر الراشدي من جلة علمائها ... فلما طلب مني الغزي المذكور ما
تقدم في هذه السطور، وأسعفه لذلك بقصيدة رائية أيقظت بها همما أمدة، وقدايح
خامدة من قبيلة بني عامر الساهية، واستنجدت له معهم فيها، حي أولاد طلحة والأحلاف
مع سويد ومن والاهم في العرب الأشراف. ثم نوهت خصوصا باسم عبد القادر، مع براءة
زناته).

كما كانت تصل ابن أبي محلي رسائل يطلب أصحابها الدعاء، مثل الرسالة التي
وصلته من تلمسان عام 1019هـ/1610م، من طرف الشيخ صالح ابراهيم بن أحمد بن
عمر (حمادي، 2013: 464/1)، يطلب فيها الدعاء للهداية والتوفيق، وهناك من يطلب
البركة، مثل ما نصت عليه تلك الرسالة الواردة لابن أبي محلي من توات (أردنا سيدي
الانخراط في سلوككم فلا تمنعونا ... سيدي ابعثوا لنا تسبيحة من أيديكم، أو غير ذلك
كشاشية من فوق رأسك، لتكون عندي البركة) (بلاغ، 2015: 15)

مكث عالم توات عبد الكريم بن محمد البكري، ببني عباس من واد الساوره ثلاث
سنوات ابتداء من سنة 1017/1608م، تلقى خلالها على يد العالم سعيد قدورة⁹، قراءة

الألفية والرسالة لأبي زيد القيرواني، وكان للبكري حوارات مع شيخه، ومما رواه عن ذلك قوله: (كنا عشية مستظلين بشجرة التين إلى جانب الرمل؛ فقال إياك أن تقرأ الكبرى لمحمد بن يوسف السنوسي، أو تقرأ مختصره على المنطق، أحذرك من ذلك؛ فخذ بنصيحتي. ثم قال: أما الكبرى ففيها من الكلام بقدر هذا الرمل العظيم، وأما مختصره فما قرأته على المقرئ حتى رجعت جبتي لقفاي، ويكفيك الخصري في المنطق، والعقيدة الصغرى في التوحيد)(البكري، ب ت: 138).

مثلت تلك الحوارات والمراسلات الدور المحوري لقرى بني عباس في حوض الساوره، تبعاً للمعطى الجغرافي، والأهم هو حجم الثقافة العالمية التي احتضنتها، ممثلة في أبي العباس أحمد بن أبي محلي، والشيخ سعيد بن إبراهيم قدورة، وعبد الكريم بن محمد البكري التمنيطي؛ فضلاً عن الطلاب الوافدين إليها.

3- خاتمة:

بعد دراستنا المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة - القرنين 11 و 12 الهجريين (17/18م) أنموذجاً- نقف عند الاستنتاجات التالية:

- إن تاريخ حوض الساوره الموثق، نجد بعض تسجيلاته في النصوص الرحلية التي تعود للقرن 11هـ/17م، بينما الفترة السابقة تبقى بعيدة عن التناول، بحكم غياب النص التاريخي الذي يدعم الرواية الشفوية.
- شكلت مجاري الأودية مسلكاً للارتداد، وحوافها فضاء للاستقرار البشري، حيث تموضعت القرى -عموماً- على ضفافها لجهة الكثبان الرملية، بينما تحاشت الجهة المقابلة لصعوبة انحدارها المؤدي للحمادة
- أظهرت مجتمعات حوض الساوره انفتاحاً على الوافدين، من ركب الحج وغيرها، وأبرزت ما عندها من مظاهر الفرح والكرم، وما سجلته الرحلات من امتعاض بعض رؤساء

- المشاهدات والحوارات في حوض الساوره من خلال أدب الرحلة القرنين 11 و 12 الهجريين (18/17م) أنموذجا
- القرى من أعيان الركب، مبعثه إظهار الهيمنة السعدية من طرفهم على المنطقة. من خلال رسائل أمير سجلماسة لبعض رؤساء القرى
- تباينت معطيات النص الرحلي عن قرى حوض الساوره؛ فبعضها حظي بذكر معطيات جغرافية واجتماعية ودينية، بينما احتفظ لنا النص بتسجيل اسماء لبعضها فقط، لأن الركب اختار الانحراف عنها لمسالك أقرب رغم وعورتها.
 - كان الحوض وقراه باعثا على استقطاب العلماء الذين أبرزوا شخصيته العلمية والتي ضاهت في بعض قراه كبني عباس، حواضر بلاد المغرب، وكانت خزائنه العلمية عامرة بالمصنفات التي كانت باعثا للاطلاع للزوار والطلبة على حد سواء
 - شهدت الأركاب الحجية النازلة بقرى الحوض عديد الحوارات الفقهية، سواء بين أعضاء الركب، أو من ساكنة القرى التي نزلوا بها، كما وجهت عديد الرسائل من أحواز وهران ومعسكر شمالا إلى ابن أبي محلي ببني عباس، قصد التعبئة لتحرير وهران، وقورارة جنوبا طلبا للفتوى والرقائق الصوفية.

رغم ما طرحته الرحلات من معارف تاريخية عن حوض الساوره في الفترة المذكورة، إلا أن معارفنا حول تلك الحواضر تبقى ناقصة وفي حاجة إلى إبراز ذلك الحضور المجتمعي والبروز الثقافي من جهة، ومن جهة أخرى تبقى الفترة السابقة للقرن 11هـ/17م، غائبة عن الأطاريح الأكاديمية لصالح تجاذبات الروايات الشفوية، فإلى متى نتجاهلها في غياب المدون؟ أم أن الأعلام الأكاديمية عاجزة عن إنزال منهجها لكتابة تاريخ حوض الساوره، انطلاقا مما توفر من روايات شفوية.

التعليق:

- ¹ - اختلف في سنة وفاته، هناك من يقول بسنة 1128هـ وهناك من يرى أنه كان حيا سنة 1170هـ/1757م، أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية ، تح: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى 2011، 34 /1
- ² - ألف ابن أبي محلي ما بين 1011هـ-1019هـ ما يزيد على الألف صفحة

³ - يذكر الترقي أن الرحلات في غالب الأحيان كان تدون في صيغة فهرسة، مثل رحلة ابن رشيد السبت (ماء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة) والرحلة العبدرية لأبي عبد الله العبدري.

⁴ - (يلتقي واد زوزفانة مع قير في إقلي ليكونا معا وادي الساورة، يستمر الوادي في اتجاه الجنوب الشرقي إلى غاية قرورة... وتتموضع قرابة 30 قرية على الضفة الشرقية لوادي الساورة بين إقليم قرورة، وتعيش هذه الواحات على المياه الجوفية ... ومن مياه فيضان وادي قير ... ووادي الساورة يعتبر معبر صحراوي يربط المراكز السكانية في الشمال الغربي الجزائري بمراكز توات) E.Dunn Rosse. المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1912-1881 ترجمة أحمد

بوحسن مطبعة المعارف الجديدة الرباط المغرب 2006 ص ص 33-35

⁵ - في نظرنا هذا مما يؤكد أن للهلال رحلة سابقة إما أنه لم يدونها أو أنه دونها لكنها فقدت، وفي هذا اختلف المؤرخون حول وجود هذه الرحلة من عدمها. أبو العباس الهلالي، التوجه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، تح: محمد بوزيان بنعلي، تق: أحمد بوحسن، مطبعة الجسور ش، م، م، وجدة 2012

⁶ - له أربع رحلات الأولى مع أبيه عام 1076هـ والثانية عام 1096هـ والثالثة 1109هـ ورحلته التي دون فيها مشاهداته كانت عام 1121هـ.

⁷ - تأهب العياشي لزيارة الأماكن المقدسة عام 1069هـ لكن بسبب لاضطرابات السياسية والأمنية حالت دون خروجه لأداء مناسك الحج، 1/ 54

⁸ - وذلك لكثرة نخيل هذه المنطقة حتى تبدو للناظر من سفير الوادي كأنها غابة. وهي تدعى اليوم الواتة

⁹ - لا ندري بالضبط متى ولا أين ولد سعيد قدورة، فهو لم يذكر ذلك في ترجمة حياته، فقد قال ابن المفتي أن سعيد قدورة قد ولد لوالديه بمدينة الجزائر بعد انتقالهم إليها من قدورة القريبة من جزيرة جربة التونسية ثم قال مرة أخرى ولد لأبويه في قدورة ثم جاء به أبوه إلى مدينة الجزائر وهو صغير السن تاريخ الجزائر الثقافي ج 1/ 358

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، تح: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي. دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات ط1 (2006)
- 2- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، تح: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الطبعة الأولى (2011)
- 3- أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، أنس الساري والساراب إلى أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042هـ/1630-1633م. حققه وقدم له محمد الفاسي، فاس 1968.
- 4- أبو العباس الهلالي، التوجه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، تح: محمد بوزيان بنعلي، تق: أحمد بوحسن، مطبعة الجسور ش، م،م، وجدة (2012)
- 5- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية، تح: الطبعة الأولى 2011 دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي الإمارات العربية
- 6- أبو العباس أحمد بن محمد التنملي الهشتوكي، هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام، والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، مخطوط رقم: ق190 المكتبة الوطنية الرباط. المغرب.
- 7- أبو القاسم الزباني (ت 1249هـ/1833)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلاي، دار النشر المعرفة، الرباط، ط2 (ب ت)
- 8- محمد بن محمد المعروف ب بن عبد الكريم الكرزازي، المناقب المعزية في مآثر المشايخ الكرزازية (عام 1297هـ)، مخطوط
- 9- حمادي عبد الله الإدريسي، السلطان السجلماسي الفقيه المفترى عليه الإمام أحمد ابن أبي محلي مهدي الساوره (967/1560 - 1021/1612م، دار بوسعادة للنشر والتوزيع، بوسعادة، المسيلة الجزائر ط1 (2013)
- 10- أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1239هـ/1823م)، الرحلة الناصرية الكبرى، تح: المهدي الغالي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب- ط1 (2013)
- 11- أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح، أنس الساري والساراب إلى أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب 1040-1042هـ/1630-1633م. حققه وقدم له محمد الفاسي، فاس 1968.
- 12- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى ت 914هـ المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية. المغرب (1981)
- 13- الإفرائي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تح عبد اللطيف الشاذلي مطبعة النجاح الدار البيضاء المغرب ط / 1 (1998)

- 14- محمد بن عبد الكريم البكري، رحلته في طلب العلم، دراسة وتحقيق، عبد الحميد البكري، دار الغرب للنشر والتوزيع (ب. ت)
- 15- عبد الله حمادي الإدريسي، صحراء وادي الساوره تاريخا، ومناقب، وبطولات، دار بوسعادة للنشر والتوزيع، المسيلة، الجزائر، ط1 (2013).
- 16- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830م) دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، (1998)
- 17- E.Dunn Rosse، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي 1881-1912 ترجمة أحمد بوحسن مطبعة المعارف الجديدة الرباط المغرب (2006)
- 18- عبد الرحمن بلاغ، الدور الحضاري للأودية الصحراوية في المغرب الأوسط وادي الساوره خلال النصف الأول من القرن 11هـ / 17م نموذجا، مقال بمجلة الواحات، المجلد 01 العدد 01، الصادرة 2015/12/15.
- 19- عبد الرحمان بلاغ، العلم والعلماء في رحلة عبد الكريم بن محمد البكري التمنيطي (ت 1042هـ / 1632م) مقال بمجلة الساوره المجلد 3 العدد 02، صدر في 2017/06/05.